المشرق

يوبيل
اخويَّة العمَلـة البيروتيَّة

نظر تاريخي اجتماعي للاب لويس شيخو اليسوعي

نو اقبل رجل من اهل الثغر في ظهيرة كلّ يوم أحـد الى مقام كنيستنا البيروتيَّة لرأى عددًا وافرًا من عَمَلة البلد يتزاحمون عند مدخلها واكثرهم لابسون ثيابهم المنبئة بحالة فقرهم الّا انَّها نظيفة لائقة بيوم الربّ وهي افخرُ ما لديهم

فان سألت مَنْ هولاء القوم وماذا يقصدون بدخولهم الى الكنيسة اجابك كلّ منهم بلا تلجلج: أنّنا قدمنا لحضور اخويَّة العملة المنسوبة الى الامّ الحزينة

فادخل ان شئتَ معها تجدهم ينفذون الى كنيسة المدرسة فلا تلبث حتى تغصّ بهم مع رحبها . ثمّ تبتدئ بعد قليل رياضات تقويَّة يتلونها جملةً ويعقبها خطابٌ ديني يلقيهِ عليهم مرشدهم احد آباء الكليَّة وتُمنَح في اثره بركة القربان الاقدس او تُزيَّح صورة الامّ الحزينة بينما تصدح موسيقى الاخويَّة ويتغنَّى القوم بملّ فيهم ومن صميم قلوبهم بمديح العذراء الطاهرة او ينشدون الاناشيد الروحيَّة التي تُعرب عن ايمانهم وتقاهم . فاذا تمَّت الحفلة انفرط سلك جمعهم وعادوا الى بيوتهم يتحادثون عمّا رأوا وما سمعوا بينما تتفاوض العمدة مع المرشد في شؤون الاخوة

فهذه الاخويَّة قـد بلغت في العام الحالي السنة الخمسين لانشائها وهي ثابتة في رياضاتها المبرورة واعمالها المشكورة فأحبَّت ان تستوقف سيرها حيناً لتنظر ما قطعتهُ من الشوط ليس ملالًا او تباهياً بل لتشكر الله على ما اسبغ عليها من النعم وتجديدًا

لتواها بذكر من سبق فتقدّس في هذه الشركة الصالحة فتستأنف سيرها بنشاط مقتفية آثارهم جاريةً على امثالهم . فتحقيقاً لهذه الغاية نذكر اوّلًا لابنائها الاب الذي اختارهُ الله ليُنشيء جمعيّتهم ويؤلّف شتاتها بهمّتهِ ثمّ نبيّن كيف قام هذا العمل على يدهِ فنمت حبّة الخردل وزكت واضحت شجرة باسقة ممتدّة الاغصان وارفة الظلّ ونختم بذكر المشروعات التي لحقت بهذه الاخوية والفروع التي تفرّعت منها فعاد اليها فضلها

١ منشئ اخوية الامّ الحزينة

أترى هذه الصورة التي اثبتنا لك رسمها في مفتتح مقالتنا . تأمّلها تجدها ممثلةً للحزم والرقّة للشدّة واللطف معاً . جبهةٌ واسعة مرقومة عليها الروّية والتفكير في المساعي الصالحة . عينان زرقاوان تنفذان الى قلب الناظر . ثغر باسم يجذب اليهِ من يراهُ . وجنتان قاحلتان كانهما لاحد نسّاك البراري او زهّاد الصعيد . بنية مهيبة وقامة طويلة كما لرئيس جيش تسعى وراءهُ جيوش منظّمة يقودها الى الحرب والانتصار

تلك صورة منشيء اخويّة الامّ الحزينة الطيّب الذكر الاب يوحنّا فيوروفتش الدلماطي الراهب اليسوعي والمرسل الغيور

بلاد دلماطية داخلة في اعمال النمسا وهي مجاورة لبحر الادرياتيك بازاء ايطالية ومعظم اهلها من العنصر الصقلبي كأهل الاقطار المجاورة لهما من كرواتية والجبل الاسود والصرب وهم القوم المتازون باصالة الرأي والنشاط والثبات في العمل . ولمجاورة الدلماطيين البحر قد اعتادوا في كلّ آن خوض غمراتهِ سواء كان للارتزاق من الصيد او لتجشّم الاسفار البعيدة تزاد ذلك في جَلَدهم وقوّة بنيتهم

ففي حاضرة تلك البلاد وفرضتها الكبيرة على البحر المدعوّة راغوزة كان مولد يوحنّا فيوروفتش في ٢٠ ك ١ سنة ١٨١٩ وكان ابواهُ كاثوليكيين لكنّ حروب تلك الازمنة كانت نكأت فيها وألصقتهما بالدقعاء . فنشأ الولد فقيراً يتحمّل في صغرهِ مضض العوز والفاقة كأنّ الله اراد ان يذيقهُ منذ نعومة اظفارهِ مرارة الفقر ليشفق بعدئذٍ على ذوي البأساء

فما بلغ الحدث سنّ الرشاد وارتشف جرعةً من مبادئ العلوم حتى اضطرّ والدهُ الى ان يختار لهُ حرفةً يرتزق منها ويلطّف نوعاً اعباء الفقر عن عائلتهِ . فلبّى الصغير الى

دعوة والده وبعد التجربة وجد ان اللاحة احسن فنّ يزاوله فاخذ مذ ذاك الحين يتجوّل في سواحل وطنه في خدمة غيره من البحريين يقذف القوارب وينصب القلوع ويكافح الرياح ويصادم تيّار البحر حتى اصبح بعد قليل من احذق مواطنيه في فنه فاتخذ له سفينة شراعيّة على حسابه وجعل يتنقّل في البلاد المجاورة ثمّ استسلم للعناية الالهيّة وابعد في اسفاره حتى بلغ الى سواحل ايطالية ثمّ تخطّى الى شواطئ تركيّة بل الى ثغور سوريّة فزارها كتاجر قبل ان يتعاطى فيها تجارة اعظم واشرف فيتاجر للسماء دررًا ثمينة تردان بها ديار الخلود

وكان جهاد يوحنّا في سبيل المعاش وركوبه البحار ومعاناته للمشاقّ والمخاطر في زمن كانت البواخر قليلة قد قوّى جنانه وصلّب اعضاءه وضاعف عزائمه فكان يزدري بالاخطار ويبطش بكل من حاول التعرّض له في مزاولة اشغاله وكان مع ذلك رقيق القلب لا يرى بائسًا الّا تعطّف عليه وبرّه على قدر استطاعته فاستحقّ ان يرحمه الله كما رحم قريبه

بقي يوحنّا عشرين سنة يمارس تلك المهنة الشاقّة وهو لا يكاد يبالي بامر نفسه ولا يفكّر الّا في الربح الزمني غير انّه كان يلوذ من حين الى آخر بحماية مريم العذراء الملقّبة بنجمة البحر ولا سيما اذا أصيب بنكبة عظيمة. وذلك ما حدث له يومًا اذ ثارت على سفينته الانواء ليس بعيدًا عن الاستانة وقويت عليها الرياح فزقّت الشُرُع وصدمت السفينة بالصخور فتحطّمت ولولا شفاعة السيّدة البتول التي استغاثها لذهب الربّان ضحيّة ذاك النوء الهائل فنجا بعد شقّ النفس والتجأ الى دير قريب للآباء اللعازريين الذين رثوا لحاله واووه مدّة حتى ثابت اليه قواه وامكنه ان يعود الى شغله

لكنّ هذا الحادث كان استوقف فكرته وانار عقله فادرك عطب هذه الحاضرة وشرف الحياة الآخرة فرحض نفسه بالاسرار المقدّسة ورجع الى وطنه ليمارس حرفته بتقيّ لكنّه كان لم يزل يشعر في قلبه داعيًا يبغض اليه نظام الدنيا ويدفعه الى الزهد بها حتى قرأ يومًا فصلًا من كتاب الاقتداء بالمسيح أثّر فيه ايّ تأثير فحمله الى تحقيق نيّته وبعد ان طلب مشورة احد الرهبان الفرنسيسيين سافر الى رومية واعتزل بضعة ايّام في احد اديرة الآباء اليسوعيين منقطعًا الى الرياضات الروحيّة رغمًا عمّا كان يجد في ذلك من الثقل والملل لكنّه لم يلبث ان عرف دعوته وشعر في نفسه بفرح

وسكينة ضمير لم يألفهما سابقاً فطلب الانضواء الى الرهبانيّة اليسوعيّة فأُجيب الى ملتمسه في ٤ من شهر ايّار سنة ١٨٥٢ فعدَّ تلك النعمة من سوابغ نعم الله عليه وانقلب رجلاً جديداً في المسيح

وكان الرئيس العام على الرهبانيّة اليسوعيّة في ذاك الوقت رجلاً عريقاً في البرّ والصلاح اسمهُ الاب بطرس بكس فاستدعى الطالب الجديد واذ تحقَّق دعوتهُ وما طُبع عليهِ من السجايا الطيّبة الموافقة للرسالات الاجنبيّة وعرف انَّهُ سافر الى سوريّة عرض عليهِ ان يُعدّ نفسهُ للاعمال الرسوليّة في تلك البلاد . وكانت الرسالة السوريّة اذ ذاك حديثة العهد وهي في حاجة ماسّة الى مرسلين غيورين يشتغلون بانشاط في كرم الربّ . فسُرَّ يوحنّا بما قيل لهُ ودخل في اقليم ليون الذي عُهدت اليه شؤون تلك الرسالة

قضى يوحنّا ستّ سنوات في فرنسة ليعمّق في قلبه اساس الفضائل الرهبانيّة التي تؤهّلهُ لاعمال المرسلين وكان رئيسهُ في دير الابتداء راهباً بالغ القداسة وهو الاب دي فورستا (de Foresta) منشئ المدارس الرسوليّة التي اغنت الرسالات الاجنبيّة بعدد عظيم من اماثل المرسلين فهذا معلّم السيرة الروحيّة وخلد في قلب تلميذهِ فيروزقتش دعائم الفضيلة وبذل الذات . واذ فتكت الحمّيات الخبيثة بعدد من المبتدئين لم يجد الاب دي فورستا مساعداً اعظم في تمريضهم من يوحنا فكأنهُ وطّن نفسهُ مذ ذاك الحين على خدمة المطعونين كما فعل في سوريّة غير مرّة

وبعد نجازهِ رياضات المبتدئين ابرز نذورهُ الاولى ثم انقطع مدّة اربع سنوات فقط الى درس الآداب والفلسفة واللاهوت فنال منها حاجتهُ لخدمة النفوس في الرسالات دون ان يتعمّق بها كما هو شأن الرهبان اليسوعيين الذين يقضون في إحرازها عشر سنوات وانّما تساهل الرؤساء معهُ في ذلك لتقدمه في السنّ ولحاجة رسالة سوريّة الى عمّة جدد

ففي سنة ١٨٥٨ رُقّي الاخ فيروزقتش الى درجة الكهنوت المقدّسة ثمَّ أُرسل الى بلاد الشام فسكن في مدرسة غزير سنتين كمعلّم وناظر على التلامذة وكان في اوقات الفراغ يدرس العربيّة الّا انَّ همّتهُ الاكبر كان ان يترجم عن افكارهِ في هذهِ اللغة دون درس اصولها لزعمه انَّ ذلك نحوٌ والنحو لا تفهمهُ العامّة . ومع هذا

تمكّن نوعاً في تلك الاثناء من غايته بكثرة اختلاطه مع صغار المدارس وخدمة الدير والفقراء

وبينما كان متفرّغاً لاعماله الصالحة في تهذيب الشبيبة اذ حدثت في دمشق وفي انحاء لبنان تلك المذابح التي اسالت دماء النصارى كالسيول فقُتل منهم ظلماً نيف وخمسة عشر الف رجل فتزمّلت النساء واضحى عدد عديد من الصغار ايتاماً يتضرّرون جوعاً ففُتحت عدّة مياتم بهمّة المرسلين اللاتينيين والراهبات الفرنسويّات اجتمع فيها مئون من هؤلاء الايتام الذين نجوا بفضل المحسنين من موت الجسد وفساد الاخلاق . وكان ميتم اليسوعيين في بيروت من اعظم هذه المآوي الخيريّة

واذ عرف الرؤساء حسن عناية الاب فيوروڤتش بتربية الصغار وحنانه عليهم دعوهُ الى بيروت ليهتمّ بأولئك الاحداث فعُني بامرهم مدّة سنتين وكان لهم بمثابة والديهم الطبيعيين بل اعطف منهم اذ قرن بين تهذيبهم الادبيّ وتربية اجسادهم

وفي السنة ١٨٦٢ جمعوا هؤلاء الايتام في ابنية واسعة شيّدوها لهم في معلّقة زحلة لضيق دير بيروت وغرف التلامذة في مدارسه . فبقي الاب فيوروڤتش خالياً من همّهم متفرّغاً لاعمال الرسالة وحدها . فجعل يعود المرضى ويزور الفقراء فما لبث ان رأى عدداً من العمّة والساكين لا يفي بهم احصاء يتواردون الى بيروت لطلب المعاش فلا يهتمّ احد بشؤونهم الروحيّة فيعيشون عيشة البهائم ويفتقدون بعد قليل ما طُبعوا عليه من الاخلاق الرضيّة باعمالهم الدين وابتعادهم عن الاسرار المقدّسة

فتمّ هذا الامر المرسلَ الغيور واخذ يبحث عن الوسائل الكافلة بحفظ هؤلاء المنكودي الحظ من عدوى الاثم ووباء الكفر فلم يجد وسيلةً اقرب الى تحقيق امانيه من انشاء اخوية تقويّة على اسم السيدة الطاهرة تجمع فيها العملة ويرشدهم بواسطتها الى البرّ والسيرة الحميدة

وكان الآباء اليسوعيّون قد عرفوا بالاختبار ما ينجمُ من الخير عن هذه الشركات الصالحة فانشأوا في ديرهم القديم سنة ١٨٥٢ اخويّة على اسم العذراء البريئة من الخطيئة الاصليّة لاعيان البلدة واواسط القوم . وكذلك عادوا فباشروا باخويّة ثانية لنساء البلدة في سنة ١٨٦١ . فنجح العملان كلاهما ايّ نجاح واثمرا الثمار الشهيّة لخير النفوس ولمجد الكنيسة

على انَّ جلب هؤلاء العملة الى ممارسة رياضات تقويَّة لم يكن امرًا يسيرًا وهم غالباً منهمكون في الاشغال المادِّيَّة غائصون في بحر الهموم الزمنيَّة لتدبير عيالهم وسدّ عوزهم اليوميّ . فألهم الله الاب يوحنَّا بان يستعين ببعض اعضاء اخويَّة الحبل بلا دنس ليقترب من قلب البائسين ويكتسب ثقتهم . فوجد بين اولئك الافاضل من اجابوا بطيب خاطر الى دعوته وخصوصاً احد رجال الخير الذي لهُ حصَّة في كلّ عمل صالح أنشئ في البلدة جناب المُهام نقولا افندي قاطي . فكان الاب فيوروفتش يتردَّد الى اسواق بيروت وبرفقته هؤلاء الاماثل فيستخبر عن احوال العَمَلة وعن عيالهم واولادهم ويمدُّ اليهم يد المساعدة عند حاجتهم حتى امكنهُ شيئاً فشيئاً ان يجذبهم الى الكنيسة ويلقي عليهم بعض الارشادات ويلقّنهم واجبات دينهم ويغذّي ضمائرهم بسرّ الاعتراف ويوزّع عليهم بعض الادوات التقويَّة كالصور والمسابح والصلبان ويحضّهم على ان يأتوا اليه باصحابهم

فبقي على ذلك اشهرًا حتى كثر عدد هؤلاء العملة وعلموا ما يكنُّهُ قلب المرسل الفاضل من الحبّ لهم . فعرض عليهم انشاء اخويَّة منظَّمة يجتمع ذووها مرَّة في الاسبوع ليقيموا فرائض العبادة لمريم العذراء فتبسط امّ الله حمايتها عليهم وعلى افراد عيالهم . فرَضُوا بذلك ومن ثم نشأت اخوية العذراء لهؤلاء العملة واتخذ لهم مرشدهم الامّ الحزينة كشفيعة خاصة ليقتدوا على مثالها اوجاعهم واتعابهم وينالوا من سراحها النعم في بلاياهم

هكذا ابتدأ ذاك المشروع الخطير الذي جملهُ صاحب الترجمة في مقدِّمة كلّ همهِ نحو ٣٨ سنة ولم يزل يسعى في تحسينهِ وترقيتهِ حتى اضحى من اجل الاعمال الرسوليَّة التي تُعنى بها رسالتنا واجداها نفعاً لخلاص نفوس العمال كما سترى في الفصل الآتي بعد انتهائنا من خلاصة سيرة منشئهم البارّ

ولم يقصر المذكور نظرهُ على ابناء اخويَّتهِ بل كانت غيرتهُ تعمّ الجميع بلا استثناء . وكان ذلك يظهر خصوصاً في استماعهِ اعترافات الخطأة فانَّهُ كان يفتح لهم قلبهُ كالمسيح سيّدهِ دون محاباة بالوجوه فيتقبَّل بكل لطف الصغار والكبار الاغنياء والفقراء بل كان قلبهُ يرقُّ شفقةً ويتطاير فرحاً اذا اتاهُ احد كبار المجرمين متذكّرًا قول الربّ عن الفرح الذي يشمل ملائكة السماء بتوبة احد الخطأة فكان يثني على

قصده وينشط همته ويسهل له الاقرار بخطاياه ويلقي عليه الاسئلة ليخفف عنه مؤونة فحص ضميره واذا اتمّ اقراره نصحه بالنصائح الابوية وبيّن له كم هو خفيف نير الربّ وحفظ وصاياه ثم يزنم عليه قانوناً سهلاً ليعود ثانيةً الى طبيبه الروحي . وكثيراً ما كان يفرض على التائب بان يأتيه باحد اصحابه فيتخذه كوسيلة لارتداد غيره من الأثمة . وقد عرفنا كثيرين من وجوه البلدة انفسهم الذين ما كانوا يحبّون ان يكشفوا ضميرهم الى غير الاب يوحنا فيوروفتش

وكانت غيرته تلك تتضاعف في ايام تفشي الامراض الوبائية حينما كان كثيرون من المسئولين يفرّون هاربين فكان هذا الراعي الصالح يبذل نفسه في خدمة المصابين لاسيما في عدوى الهواء الاصفر التي ظهرت مرتين في بيروت سنة ١٨٦٥ و١٨٧٥ وفتكت بالاهلين فتكاً ذريعاً فان الاب فيوروفتش درس هذا الداء درساً خصوصياً حتى يتسنّى له ان يساعد الفقراء في غيبة الاطباء. وقد كتب في ذلك رسالة طُبعت في مطبعتنا البيروتية واتى علاجه بنتائج حسنة جداً . وكان في تلك الايام يقضي نهاره متنقلاً في احياء المدينة فيعود بعد المغرب عيّاً منهوك القوى . وكان يسير الى حيثما يطلبه المصابون فيهتمّ بالروح والجسد معاً وقد استدعاه غير الكاثوليك ايضاً كالروم والمسلمين واليهود فاجاب الى طلبتهم دون تريث وكان يوزّع عليهم الادوية مجّاناً . وقد ردّ حينئذٍ الى الله كثيرين من الخطأة الذين تمادوا في الجهل حتى انّه كان يقول : انّ الهواء الاصفر خير المرسلين وافضل المنذرين . وكان هو يعرّض نفسه للموت في كلّ ساعة مع اخوته الرهبان فلم يُصب منهم واحد بالوباء بنعمة خاصّة من الله . وقد عرفت الحكومة الفرنسوية لهم فضلهم فاهدتهم اوسمةً شكراً على مروّتهم امّا الاب فيوروفتش فاسرع وباع وسامه وأنفق ثمنه على المحتاجين

ثمّ رأى الاب يوحنا بؤساً آخر يستدعي همته في بيروت فما كان منه الّا ان قصد تلطيفه زيد بؤس المحبوسين فانّه تمكّن برخصة ارباب الامر من زيارتهم فرأى كثيرين منهم في اسوإ الاحوال مادّياً وادبياً فاخذ يتردّد عليهم لاسيما في الاعياد الكبيرة ويرشدهم ويعزّيهم ويمنحهم الاسرار المقدّسة ثمّ شرع يستعطي لهم ويجمع الحسنات عند اهل الكرم فيوزّع عليهم الملابس والاطعمة والدراهم ويوصي بهم حرسهم . فكانوا يعدّون يوم مجيئه اليهم كموسم عظيم . وعلى مثاله يجري اليوم خلفه

وكان في جوار بيروت معامل حرير يتوارد اليها العملة من لبنان في بعض فصول السنة فسأل الاب فيوروڤتش اصحاب تلك المعامل ان يأذنوا لهُ بارشاد اولئك الفعلة مرَّة او مرَّتين في الاسبوع فوقع عملهُ احسن موقع لديهم اذ تحقَّقوا انَّ العمَّال يزيدون امانةً ونشاطاً على قدر ازدياد روح الدين في قلوبهم وكثيرون منهم قد اعتادوا مذ ذاك الحين الى يومنا ان يأتوا صباح الاحد الى كنيستنا فيتمموا واجباتهم الدينيَّة بكل تدقيق

ولمَّا انتشر صيت الاب فيوروڤتش في انحاء لبنان استدعاهُ الكهنة الى بعض القرى ليعطي الرياضات الروحيَّة لاهلها فكان لكلامهِ مع بساطتهِ تأثير كبير في القلوب وقد سمعنا غير مرَّة الذين حضروا رياضتهُ في دير القمر يثنون على غيرتهِ الرسوليَّة ويذكرون عدد المرتدّين بواسطتهِ الى ممارسة الفرائض الدينيَّة

وكان المترجم مع هذه الاعمال لا يحبُّ البطالة مطلقاً فاذا بقي لهُ شيء من الوقت صرفهُ في الكنيسة مستحرًّا بالصلاة امام القربان الاقدس او امام ايقونة العذراء فكان الذي يشاهدهُ لا يتمالك عجباً من رقَّة عبادتهِ . وكم كنَّا نراهُ يتلو المسبحة او الفرض الالهيّ بتخشُّع كان يؤثّر فينا ايَّ تأثير

وكان مرسلنا النبيه محبًّا للدرس فاذا انتهى من اشغالهِ الروحيَّة انعكف على مطالعة كتب الآباء القديسين واللاهوتيين . وقد ابقى عدَّة آثار تُعرب عن خصافة عقلهِ وكثرة مطالعاته نخصّ منها بالذكر كتابهُ الواسع الفوائد المعنون بالكنيسة الجامعة الذي ألَّفهُ مع حضرة الاب جرجس فرج صفير . ولهُ ابحاث تاريخيَّة ودينيَّة واجتماعيَّة ورسائل عديدة نُشر بعضها في فرنسة

فترى انَّ هذا الرجل الصالح تاجر بوزناته احسن المتاجرة ولم يحضر امام ديَّانه صفر اليدين . وكان في السنين الاخيرة من حياته يتجرَّد كلّ يوم عن هذا العالم الفاني ليعدَّ نفسهُ لاستقبال خالقه بالطمأنينة والثقة . واذ لحظ الرؤساء انحطاط قواهُ ارسلوهُ في اواسط الصيف السنة ١٨٩٨ الى ديرنا في بكفيَّا فثقلت عليهِ هناك وطأة المرض في اوائل شهر ايلول واذ ذاك اسرع الى طلب الاسرار الاخيرة فاقبلها بكل تُقيّ مصغياً الى صلوات الكنيسة وربَّما كان يردّدها صارخاً : « ما اجمل وما اسمى هذه الصلوات المملوَّة عذوبة » . وبعد ان استغفر من الحضور عمَّا يكون فرط منهُ

من النقائص شكر الله الذي منحهُ نعمة الدعوة الرهبانيَّة والكهنوتيَّة واوصى خلفهُ بابناء اخويَّته وحضَّ الدارسين من الرهبان على الجدّ والنشاط في خدمة الله وخلاص القريب - ثم اسلم الروح الى بارئه بكل هدوء في ٩ ايلول الموافق للاحد الاوَّل من الشهر الذي كان اختارهُ للمناولة العموميَّة في اخويَّته لاكرام قلب يسوع الاقدس

وما انتشر خبر منعاهُ حتى طلب اولادهُ الروحيُّون ان تُنقل جثَّتهُ الى بيروت فتُدفن في مدفن كليَّتنا قريباً منهم لكي يتذكَّروا وصاياهُ ويقتفوا بامثاله فكانت جنازة دفنه في كليَّتنا غاية في الرونق والتأثير اذ اقبل الى حضور جنازته كلّ الذين عرفوا فضلهُ ونالوا احسانهُ يعدّدون مآثرهُ ويبكونهُ كأعزّ الاقارب ولم يشاؤوا ان يُدفن قبل ان يُفتح تابوتهُ ويتباركوا منهُ آخر مرَّة بتقبيل يده الطاهرة

وفي الاحد التالي أعدَّت عمدة الاخويَّة جنَّازًا حافلًا لراحة نفسه فالبسوا الكنيسة لبس الحداد واقاموا لهُ ضريحًا كسوهُ بعلامات الحزن . وكان كاتب هذه الاسطر قد دُعي لتأبين الفقيد فبنى كلامهُ على آية سفر الرؤيا (١٤ : ١٣) : « طوبى للاموات الذين يموتون في الربّ . . . لأنَّ اعمالهم تتبعهم »

٢ اخويَّة الامّ الحزينة

سبق انَّ اخويَّة الامّ الحزينة كانت بكر اعمال الاب يوحنَّا نيرودوقتش الرسوليَّة العموميَّة . وقد قرأنا في رسائله بل رأينا رأي العيان نظام تلك الشركة التقويَّة فيكفينا ان نزوي عنها ما ثبتت لنا معرفتهُ

شرع الاب المذكور بتأليف هذه الاخويَّة سنة ١٨٦٣ حيث كانت الاحوال قد ضاقت في الجبل فنزل كثير من اللبنانيين الى بيروت طلبًا للرزق كحمَّالين وبنَّائين وباعة وخدَّام واكثرهم لا يعرف من امور الدين الَّا القليل الزهيد مما تعلَّموهُ في حجور أمَّهاتهم لقلَّة المدارس في ذاك الوقت . فلمَّا تمكَّن مرسلنا النور من جذب نفر منهم الى كنيستنا القديمة في حيّ الصيفي اختار بينهم اعظمهم نشاطًا وبعد امتحانهم مدَّة جعلهم كعمدة الاخويَّة وعلَّق على صدورهم ايقونة العذراء الطاهرة . امَّا الطالبون الجدد فكان يقبلهم في درجة المبتدئين ويعيّن لهم احد المتقدّمين ليرشدهم ويعدّهم للانتظام بين الاخوة فاذا رآهم بعد اشهر مواظبين على رياضات الاخويَّة سالكين في سبيل الصلاح ادرجهم في سلك الاخوة بعد مصادقة المشورة على قبولهم

ولمّا نما عدد الاخوة حتى بلغ المئين بل زاد على الالف اتّسع ايضاً مرشدهم في تعديد الوظائف وتوفير عدد الوكلاء. فجعل لكلّ حيّ من احياء المدينة ناظراً او اكثر يفيدونهُ عن احوال الاخوة وحسن سلوكهم وحاجاتهم وامراضهم فيقف بذلك على امورهم ويسدّ كلّ خلل يطرأ

امّا الاجتماعات العموميّة فعيّن لها ظهر الاحد والعملة في ذلك اليوم منقطعون عن الشغل. فكانوا اذا حان الوقت وسمعوا الناقوس يجتمعون في الكنيسة فيقضون ثلث الساعة في استماع قوانين الاخويّة ومختصر التعليم المسيحيّ مع صورة فحص الضمير ثمّ يتلون اخصّ الصلوات التي يجب على المؤمن ان يعرفها . وكان المرشد قد تفنّن بوضع هذه الرياضات فتعود بالنوبة مرّة بالشهر فقط فلا يحصل من تكرارها السأم

ثمّ كان المرشد يرقى المنبر فيخطب فيهم نصف ساعة في بعض حقائق الدين والمعتقدات او في وصايا الله والكنيسة والادبيّات . وكان كلام الاب فيرو وقتش مع عجمته مسموعاً يُصغي اليه الجمهور بشوق لأنّ الاب كان يخطب كرجل ذي سلطة وبصوت جهور كثير التفنّن في نغماته وكان يحسن الحركات الخطابيّة حتى انّها مرارًا كانت ادلّ على المقصود من لهجته الغريبة . وقد تمكّن بارشاداته الى ان يطبع في قلوب سامعيه ايماناً حيًّا كان يظهر في كلّ تصرّفهم مع عيالهم وقريبهم

وممّا سعى بهِ ليزيد رغبة الاخوة في الاخويّة انشاؤهُ لجوقة موسيقيّة كانت تشنّف آذان السامعين بقدودها المطربة فتزيد الحفلات الدينيّة بهاء وجلالاً وقت زيّاح القربان الاقدس او بركة صورة العذراء في اثر الحظة . وقد عانى العناء الكثير في تنظيم هذه النوبة وحفظها لانّهُ رآها وسيلةً عظيمة لزيادة رونق الاخويّة

وحدّد للاخويّة في السنة رياضتين الواحدة في اوّل الخريف اذ يعود المصطافون من الجبل الى اشغالهم السنويّة فتدوم خمسة عشر يوماً يجتمع في مدّتها الاخوة بعد غروب الشمس بنصف الساعة . والاخرى في الجمعة السابقة لجمعة الآلام اتّخذها كاستعداد لاقتام الفرض الفصحيّ وكان يدعو للرياضتين كلّ العملة سواء كانوا من الاخوة او لا . ولا يسعنا ان نصف ما اتت بهِ هذه الرياضات من الخير بين العموم فانّ

اثارها الروحيَّة لا يفي بهـا احصاء كما اقرّ بهِ كلّ من حضرها ورأى اقبال الجمهور عليها

وكان الاب المرشد قـد استحضر لهذه الغاية صورًا كبيرة شفّافة بالوان ناصعة كان ينيرها في آخر المواعظ واذا هي مختصر ارشادات الرياضة قد رسم فيها عواقب الانسان من موت ودينونة وجحيم ونعيم مع الخطايا الرئيسيَّة وغـير ذلك مما كان يشرحهُ للحضور في آخر كلامهِ قبل بركة الختام . وكان المرسلون اخوتهُ اذا ساروا الى مكان لرياضة اخذوا معهم تلـك الصور وهم يدعونها مزحاً « بأبالسة الاب فيوروفتش » . ومن عجيب مـا يروى من امرها انَّ الاب منصور نورمان ونيس رسالتنا سابقاً كان اخذها معهُ الى حوران فجعلها في اسطوانة من التنك فخرج عليهِ العربان يريدون سلب امتعتهِ فما وجد لينجو منهم غير تلك الاسطوانة فصوَّبها عليهم فظنُّوها مدفعاً وولَّوا هاربين فكان الاب منصور يقول متنكّهاً : « قد نجوتُ بفضل شياطين الاب فيوروفتش »

وكان الاب يوحنّا يحبّ الحفلات الدينيَّة التي من شأنها ان تعظّم الديانة في اعين الشعب . فمن ذلك حفلة عيد شفيعة الاخويَّة اي الأمّ الحزينة في الاحد الثالث من شهر ايلول فكان الاخوة يطوفون في احواش كلّيتنا يتقدَّمون بالنظام امام صورة سيّدة الاوجاع والنوبة تـدقّ نغماتها الشجيَّة وهم يتغنَّون بالاناشيد والترنيمات على ايقاع الصنوج ويصلُّون لشفيعتهم . وكان قد استحضر لهذا الطواف عددًا وافرًا من الرايات الملوَّنة والبيارق المنمَّقة للعذراء مريم وغيرها من القديسين يحملها المتوظفون او اولاد المدارس وكانت تُختم هذه الحفلة بطلبة الام الحزينة عند الهيكل الجميل الذي كان اقامهُ المرشـد لذكرها وهناك تمثال بديع لامّ الله حاملةً في حجرها جسم ابنها الطاهر لمَّا أُنزل عن الصليب

واعظم من هـذه الحفلة موكب الاخوة في الاحد التابع لعيد القربان الاقدس اكرامًا لسرّ جسد الربّ فانَّ مرشدهم لم يدَّخر يومئذٍ وسعاً ليجعل ذاك الطواف في غاية الأبَّهة والرونق فكان يدعو ليترأسهُ نيافة القاصد الرسولي او احد ارباب الاكليروس مع عدد حديد من الكهنة فيُحتفل القربان الاقدس بالجلال اللائق بشأنه يتقدَّمهُ نحو الالفين من الحضور ماشـين بالنظام والخشوع صارخين كالجنوع يوم دخول المسيح

الى اورشليم : « هوشعنا مبارك الآتي باسم الرب » . فكان هذا المنظر يؤثر جداً في كلّ من يشاهده . وكان هذا الطواف في السنين الاولى يسير من ديرنا العتيق الى حيث اليوم محطّة المدوّر لولا انّ قلّة احترام بعض الاشقياء اوجب حصره في ضمن ديرنا

وكان للاخوية مواسم اخرى يظهر المنتمون اليها في مجالي افراحهم كموسم تجديد الانتخابات السنويّة وعيد رأس السنة اذ يقدّمون لرؤساء الكليّة تهانيّ الاخوة

واعضاؤها يستوقفون ايضاً الانظار في جنازة الاخوة فانّهم اذا مات احدهم اجتمع كثيرون منهم عند جثّته وصلّوا عليه مع مرشدهم وشيّعوه باحتفال الى مقامه الاخير فتصير بحضورهم طلعة الفقير شبيهة بطلعة الغنيّ بل اوقع في القلوب اذ ليس هناك جاهٌ عالميّ او فخفخة

ومعلوم انّ اخويّةً مثل هذه اكثر تبعتها من الساكين او الرقيقي الحال تحتاج الى مصاريف بالغة لمساعدة من ينكبهم الدهر فلا يملكون طعام ليلة او يلقيهم المرض على فراش الألم فليس من يعودهم ويلطّف اوجاعهم . وكان الاب فيوروفتش اخذ على نفسه ان يسعف هؤلاء البائسين ولكن كيف يمكنه الامر وهو راهب فقير ليس له ثروة يستمدّ منها . لكنّ المحبّة تذلّل كلّ المصاعب فجعل مرشد الاخويّة لا يدع باباً الّا طرقه ليحنّ قلوب الاغنياء على الفقراء فتبرّعوا عليه بشيء من مالهم . ثمّ اخذ يكتب الرسائل الى الجمعيّات الخيريّة في فرنسة والى رؤساء رهبانيّته ويستعطف كلّ من عرفه من ذوي الجود والكرم فامكنه ان يجمع ما يكفيه غالباً في كل سنة لمساعدة المنكوبين اعني نحو عشرة الاف قرش . وكان يودّ ان يدّخر لهم رأس مال يقوم عليهم ريعه لكنّه لم يتوفّق لرغبته هذه ولعلّ الله لم يشأ ان يجعل الاب تتّكل بذلك المال المجموع فيكون اتكالهُ على الله وحده الذي يقيت طيور السماء ولم يدع شعرة من رأس عبيده تسقط دون اذنه فيصح فيهم قول النبيّ (مز ٣٦ : ٢٥) : « لم ار صدّيقاً مخذولا ولا ذرّيّة له تلتمس خبزاً »

وان سأل السائل وهل يُعرَف عدد الذين انضمّوا الى اخويّة الامّ الحزينة . اجبنا انّ سجلّات هذه الشركة تحتوي منذ اوّلها الى اليوم نحو عشرة آلاف اسم . وهو لعمري عدد بليغ ينطق بفضل منشئ هذا المشروع الصالح ووفرة ثماره في النفوس

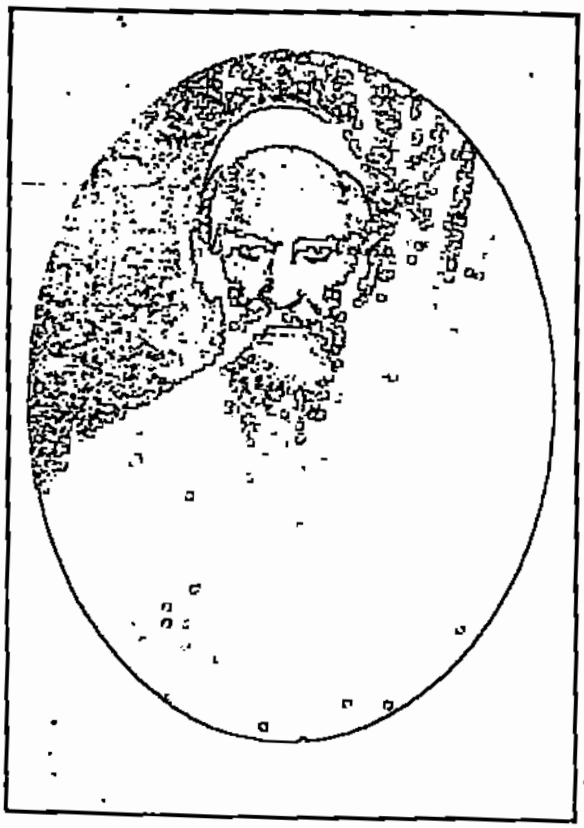

الاب يوحنا فيوروفتش اليسوعي

منشئ اخوية الام الحزينة

١٨١٩ – ١٨٩٨

٣ الملحقات باخويّة الام الحزينة

على انّ العـدد الآنف ذكرهُ لا يشمل المشروعات اللاحقة باخويّة الامّ الحزينة التي امتدّ خيرها الى نفوس كثيرة من اعضائها وغيرهم ايضاً وهـا نحن نذكر ذلك بالاجمال. ومن هذه المشروعات ما قام بهِ خلفاء الاب فيوروقتش

يعود الفضل الى هذه الشركة انّهـا كانت مثالًا لاخويّات أخرى أُنشئت على نمطها في انحاء مختلفة وكان الساعون في ذلـك غالباً من اعضاء اخويّة الامّ الحزينة اذ كانوا ينتقلون الى امكنة شتّى في لبنان او في بعض مدن السواحل حتى في اميركة عينها فكانوا يتّفقون مع كهنة تلك الجهات فينشئون شركات على منوالها

ومن فضلها ايضاً عبادات صالحة أَلفها رجال التقى فنالوا بركاتها. اخصّها عبادة قلب يسوع الاقدس فان الاب فيوروقتش حبّب الى ابناء اخويتهِ اكرام ذاك القلب المضطرم حبًّا للبشر فجعل فوق مذبح الامّ الحزينة صورة هـذا القلب الالهيّ كما ظهر للطوباويّة مرغريتا مريم ليوثّر نظرهُ في قلوب الفقراء خصوصاً

فلتحقيق امنيّتهِ هذه كان يدعو ابناء الاخويّة في صباح الجمعة الاولى من كلّ شهر الى حضور الذبيحة الالهيّـة والتقرّب من سرّ القربان الاقدس فكانوا يجيبون الى دعوتهِ بطيب الخاطر امّا الذين كانت تحكم عليهم الاشغال بالتبكير في عملهم فانّهم كانوا يستعيضون عن ذاك اليوم بالاحد الاوّل من الشهر فيتباون فيهِ الاسرار لاكرام قلب الربّ والتكفير عن مآثم البشر

ثمّ انّ الاب فيوروقتش رأى بعد ذلك ما هو اولى وافضل فانّهُ دعا اربعين من ابناء الاخويّة ليقضوا ليلهم في ديران كنيستنا فكانوا يتناوبون في السجود للقربان الاقدس المصود في ليلة الخميس الى الجمعة الاولى من الشهر في كنيستنا فيحيون تلك الليلة صلاةً وتسبيحاً ساجدين خمسةً خمسةً مدّة ساعة تامّة. فهذه العبادة المنشأة قبل ثلاثين سنة لا تزال جاريةً حتى اليوم فتستطر نعم الخالق على المدينة وتردّ غضبهُ عن آثام اهلها. ثمّ الحق بهذه العبادة عبادةً اخرى للصليب المقدّس باقامة رياضة درب الصليب في كلّ مساء الجمعة من اسابيع السنة يقيمونها في كنيستنا

ولعلّ الاب يوحنّا اراد ان يطبع في قلوب اولادهِ ذكر آلام السيّد المسيح اذ عمد سنة ١٨٦٨ ان يؤلف فئـة من الزوّار لاورشليم والامكنة المقدّسة . فعرض

عليهم الامر ولم يطلب من كلّ واحد منهم لسفرهم بحرًا وبرًّا ومعاشهم مدّة خمسة عشر يوماً الّا خمسين قرشاً . فنال هـذا المشروع حظوى لدى العلّة فكان يجتمع منهم كلّ سنـة ستّون شخصاً يتولّى للرشد قيادتهم وتدبيرهم والعناية بهم روحاً وجسماً فيدخلون القدس الشريف بموكب حافل وخشوع تامّ يتلون الورديّة اثنين اثنين او يرتلون التراتيل التقويّة وفي مقدّمتهم زعيمهم الفاضل كأنّهُ قائد جيش ظافر فيخرج اهل اورشليم لمعاينة هؤلاء الوفود ويرافقهم النصارى الى كنيسة القيامة حيث يتباركون بالزيارة الاولى للقبر المقدّس

وكانوا يقيمون في القدس اسبوعاً كاملاً يضيفهم الآباء الفرنسيسيّون في مثواهم فيستعدّون مدّة ثلاثة ايّام بالترؤض وتنقية الضمير للمناولة السموميّة ثمّ يتنقّلون الى كلّ الزارات التي في المدينـة ولا يحلّون في مكان الّا أعطوا لمن يشاهدهم قدوة صالحة . ثمّ كانوا اذا انتهوا من زيارة القدس يذهبون الى بيت لحم والى عين كارم بالنظام عينهِ فيتحفّى بهم اهلها ويثنون على ورعهم وايمانهم . وكانوا اذا رجعوا الى وطنهم لا يلهجون الّا بنعمة تلك الزيارة شاكرين فضل مرشدهم الذي احظاهم بها . وقد عاد الاب فيروفتش مـدّة عشرين سنة الى زيارة القدس مع قومهِ فانعش بذلك في قلوب مواطنينا ذكر تلك الامكنة التي يقدم كثيرون من الاجانب الى التبرّك بروزيتها ويكاد يجهلها القريبون منها . على انّهُ قد لقي بعد ذلك في سبيلهِ من العوائق بسبب حوادث السفر وغيرها ما احوجهُ الى ايقافها . وخلفهُ اليوم حضرة الاب ديد معتصم العزم على استئنافها قريباً ان شاء الله

وليست هذه المشروعات وحدها ناجمةً عن اخويّة الامّ الحزينة بل ألحقوا بها اعمالاً أخرى لا ينكر فضلها منها جمعيّة الشبّان تحت حماية القديس لويس غنزاغا التي يسعى اعضاؤها المنتسبون الى اخويّة العلّة بالمحافظة على كلّ الآداب الصالحة والسيرة المسيحيّة ثمّ يجهدون نفسهم في الاهتمام بصغار الصنّعة واهل الحرف الذين لا يسعهم غالباً ان يتربّوا في المدارس . وهؤلاء الشبّان يبلغ عددهم الاربعين

امّا الاحداث الذين يُعنَون بامرهم فعددهم يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ يجتمعون كلّ يوم احد بعد اخويّة الرجال في مدارس حيّ الدحداح فيقضي الشبّان مدّةً من زمانهم في نظارتهم ويساعدهم في عملهم المبرور تلامذة مدرستنا الكاثوليكيّة من

اكليريكيين وعلمانيين الـذين يلقنونهم الصلوات ويشرحون لهم التعليم المسيحي ليتأهبوا للمناولة الاولى. ويتخذون عدة وسائل ليجذبوهم الى هذه الاجتماعات بأن يوزعوا عليهم ثياباً واطعمةً والعاباً واذا حان وقت مناولتهم الاولى ألبسوهم الملابس البيضاء. واقاموا لهم الحفلات الشائقة فينشأ هؤلاء الاحداث على روح الدين ويصونون نفوسهم في البرارة والتُقى. وربَّما اهتمُّوا باهل حرفةٍ واحدة فجمعوهم وهذَّبوهم وارشدوهم الى العيشة المسيحيَّة كما فعلوا مع صَبْغة الاحذية (اولاد البويا) وغيرهم فأتت كلّ هذه الاعمال بالنتائج المرغوبة المبهجة لقلب امنا الكنيسة

فترى من تعداد هذه المشروعات الطيّبة انَّ اخويَّة العملة لم تُخيب أمـل منشئها بل اتت بأثمار تضاهي رجاء الكنيسة المقدَّسة فيها فيحقّ لهـا في ختام هذه السنين الخمسين ان ترفع الى الله شكرها الحميم على ما انعم به عليها وان بدا منها تقصير في شيء فهي تطلب منهُ تعالى ان يفسح لها الاجل كي تستدركهُ وتتلافاهُ عمَّا قليل باضعاف همَّتها في سبيل الخير

ثم انَّها لا تنسى كلّ الذين آزروها في العمل فتستمدّ لمنشئها الطيب الذكر ان يجزل الله لهُ الثواب في دار البقـاء. وتلتمس لخلفيهِ من بعدهِ حضرة الاب ادوار ميشال الذي افرغ مجهودهُ في ادارتها مدَّة ١٨ سنة ثم حضرة الاب ديد مرشدهـا الحالي وحضرة مساعديهما الخوري يوحنَّا طنوس والخوري بطرس فرج ان يفلحوا زمناً طويلاً كرم ربّ البيت قبل ان ينالوا جزاء اتعابهم في منازل الابرار. كما انَّها تشكر كلّ المحسنين اليها في حاجاتها المادّيَّة والادبيَّة وتتوسَّل الى الله بان يثيبهم على إحسانهم منة ضعف

واذ هي تتأهب لتدخل في طور جديـد من حياتها تتمنَّى لكل من إنضوى اليها ومشى تحت رايتها ان يجعلوا نصب عينهم الغاية الشريفة التي أُنشئت لاجلها اعني خلاص نفوسهم بثباتهم في ايمان اجدادهم وممارستهم كل الفضائل الجديرة ببناء ملكة السماء في حياتهم الفرديَّة والعائليَّة والاجتماعيَّة ثمَّ اجتهادهم بان يكونوا لغيرهم كالاسرجة المنيرة الوقَّادة يستضيئون بها لمعرفة الصلاح فينهجوا على مثالهم سُبُل البرّ وينالوا وإيَّاهم جزاء العبد الصالح المؤتمن على الكثير بعد ثبوت امانتهِ على القليل